رؤية الاستشراق لعلوم القرآن
تاريخ المصحف أنموذجًا

د. منجيّة السّوايحي (*)

لا ينقطع التّفكير في موضوع الاستشراق كمبحث هامّ يندرج ضمن حوار الثّقافات، ولذلك فإنّ تناولنا للموضوع ليس من باب التهجّم على الاستشراق والمستشرقين، وليس كذلك من باب المدح، وإنّما سنطرح الموضوع بطريقة موضوعيّة ورصينة لأنّ المناقشات الفكريّة الإيديولوجيّة الّتي دارت حول الاستشراق منذ السّتّينات وإلى اليوم تعبّر عن سوء فهم كبير بين الطّرفين المستشرقين من جهة والمسلمين والعرب من جهة أخرى ولذلك، لم نصل إلى نتائج مجدية وحاسمة إلى حدّ السّاعة، ومن هنا رأيت أن أتناول في هذا البحث ما للمستشرقين وما عليهم دون الوقوع في الصّراع الانقسامي، ولكن لنكشف عن سبب قوّة المستشرقين وسرّ نجاحهم وتفوّقهم في موضوعات تخصّ المسلمين والعرب تتعلّق بأدقّ جزئيّات حضارتهم وهي الدّراسات القرآنية. ولقد اخترت موضوع تاريخ المصحف لأقف عند مجهودات بعض المستشرقين في هذا

(*) أستاذة علوم القرآن بالمعهد الأعلى لأصول الدّين.

الفنّ من فنون علوم القرآن، ثمّ أشرت إلى عمل المستشرقين الجليل في مجال التّحقيق والتّدوين والفهرسة.

1 - تاريخ المصحف :

أهمّ مبحث شغل المستشرقين في الدّراسات القرآنية هو مبحث "تاريخ القرآن" إذ اعتنوا به عناية خاصّة من حيث نزوله، وتدوينه وجمعه، واللّغة الّتي جاء بها، وأسلوبه وقراءاته ولهجاته وما إلى ذلك.

وبدأت تلك العناية من أوائل القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين. وسنعطي لمحة عامّة عن مجهودات بعض المستشرقين في تاريخ القرآن، ثمّ نخص بالذّكر منهم نولدكه (Theodor Nôldeke) الّذي يعتبر شيخ المستشرقين في دراسة هذا الباب من علوم القرآن، وبلاشير Régis (Blachère) لأنّه أكثر المستشرقين تعمّقا في هذه الدّراسة، وأقربهم إلى الموضوعيّة.

لقد خصّص المستشرق الفرنسي بوتيه (1800 م - 1883 م) جزءا كبيرا من تاريخ حياته لدراسة القرآن من حيث نزوله، وأهدافه، وأغراضه، وعدد الأديان الّتي تتّفق والقرآن، والأديان الّتي تتعارض معه، وأبرز أثر القرآن في الحياة الاجتماعيّة، وذكر الفترات الزّمنيّة المقدّسة في الإسلام (الأشهر : رمضان مثلا، الجمعة...) والمذاهب الّتي نشأت في أحضان الحضارة الإسلاميّة وتمّ نشر هذه الدّراسة في باريس سنة 1840 م، وبعده جاء المستشرق الألماني جوستاف فايل (1808 م - 1889 م) فكتب رسالة عنوانها : "مدخل تاريخي إلى القرآن".

واتّصفت هذه الرّسالة بمنهج علميّ دقيق يشهد بمعرفة المصنّف بالمنهج التّاريخي خاصّة.

وفي رسالته صنّف السّور المكّية إلى ثلاث مجموعات لأوّل مرّة في التّاريخ وقد استفاد منه (Theodor Nôldeke) في كتابه "تاريخ القرآن" الّذي نال به جائزة أكاديميّة النّقوش الأثريّة بباريس [1].

وقد ذكر فايل أنّ النّبي محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم يعلم القراءة والكتابة، ولكنّه لم يستطع أن يثبت قوله بأدلّة نصيّة ولا عقليّة.

2 - نولدكه وتاريخ القرآن :

وبعد فايل تخصّص نولدكه الألماني (1936 م - 1930 م)، فصنّف كتابه "تاريخ القرآن" ، وبعد أن تحصّل على جائزة مجمع الكتابات والآداب في باريس على هذا العمل سنة (1858 م) ترجم كتابه إلى الألمانيّة ونشره تحت عنوان "تاريخ النص القرآني" جوتنجن، (1860 م).

وقد طبع الكتاب للمرّة الثّانية بتنقيح كلّ من "شفلي" (Friedrich Schawlly) و"برجترسر" (G. Bergstrasser) و"برتسل" (O. Pretzel) [2].

وانصبّ اهتمام "نولدكه" في كتابه بقضيّة تأريخ السّور والآيات القرآنيّة، وتوّج الكاتب هذا الكتاب بتكملة عبارة عن جملة مقالات عن علم اللّغات السّامية أنجزها سنة 1910م، وطرح فيها الموضوعات التّالية :

- القرآن والعربيّة
- خصائص أسلوبيّة

(1) جولد تسيهر أجنتس، مذاهب التفسير الإسلامي، ص 7، ترجمة عبد الحليم النّجار، دار إقرأ، الطبعة الثانية، 1403 هـ/ 1983 م.

(2) مذاهب التفسير ، ص 7، هامش 1.

- خصائص تكوين الجمل في لغة القرآن
- كلمات أجنبيّة مستعملة عن عمد وعن غير عمد في القرآن [3].

وقد حاز كتاب "نولدكه" إعجاب المستشرقين فاعتبره "دودي بارت" من أهمّ كتبه على الإطلاق، لأنّه من المصادر الأساسيّة في هذا المبحث من مباحث علوم القرآن، ضبط فيه السّور المكّية والمدنيّة وجدّد ميزات كلّ قسم منها من حيث الأسلوب والمضمون وآهتمّ فيه بموضوع جمع القرآن وكلّ ما يتعلّق بتاريخه وشهد له بلاشير (R. Blachère) بهذه الميزة بعباراته التّالية : "وبفضل "نولدكه" ومدرسته أصبح ممكنًا من الآن فصاعدًا أن نوضّح للقارئ غير المطّلع على ما يجب أن يعرفه عن القرآن ليفهمه بتوعيته، وليتخطّى القلق الّذي ينتابه عند اطّلاعه على نصّ يغلب عليه الغموض وتكثر فيه الألغاز، ويصعب دائمًا تتبّعه في سياقه الّذي لا يرافق المراحل الأربعة المتتالية لدعوة محمد في مكّة والمدينة [4].

3 - هفوات نولدكه :

بذل المستشرق نولدكه مجهودا كبيرا في البحث عن تاريخ القرآن، إلاّ أنّه وقف مواقف متضاربة من القرآن. ففي الفصل الّذي عقده في كتابه "الوحي الّذي نزل على محمّد ولم يحفظ في القرآن" يلمع إلى تحريف القرآن تلميحا لا تصريحًا. وإذا عدنا إلى دائرة المعارف الإسلاميّة، نجده يقول تحت مادّة قرآن :

(3) البيرت ديتريش، الدّراسات العربية في ألمانية، تطوّرها التاريخي ووضعهاالحالي، ص 14، جوتنجن، 1962 م.

(4) بلاشير، القرآن : نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره ص 21، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1974.

"إن ممّا لا شكّ فيه أنّ هناك فقرات من القرآن ضاعت" ويؤكّد على هذا الرأي في دائرة المعارف البريطانيّة تحت مادّة القرآن قائلا :

"إن القرآن غير كامل الأجزاء" (5).

ولا يذكر "نولدكه" أدلّة صريحة على دعواه هذه. وبعمله هذا فتح باب القول بتحريف القرآن حتّى أنّنا لا نكاد نجد مستشرقا لا يذكره تصريحًا أو تلميحًا ثم نجده يدافع عن القرآن لمّا يذكر المستشرق "فوللرز" الّذي كتب عن لغة الكتابة واللّغة الشّعبيّة عند العرب القدامى، وزعم أنّ القرآن ألّف بلهجة قريش ثمّ وقع تعديل تلك اللّهجة وتهذيبها حسب أصول اللّغة الفصحى في عصر ازدهار الحضارة العربيّة، حتّى استقامت وأصبحت قرآنا.

وهنا ينهض "نولدكه" مدافعًا عن لغة القرآن دفاع العالم الموضوعي متّهمًا "فوللرز" بالتطفّل العلمي وبأنّ ما قاله لا يخضع للتّحقيق العلمي ولا للصّحة المنهجيّة (6).

وفي نقطة أخرى، نرى "نولدكه" يعجب بسرّ البيان القرآنيّ ويقرّ بإعجازه البلاغي فيكتب سلسلة من المقالات في الموضوع، ثمّ نجده في دائرة المعارف البريطانيّة تحت مادّة القرآن يغمز نظم القرآن فيزعم أنّ أسلوبه يعوزه التّسلسل المنطقي في عرض الأخبار والسّير، وينتقد أسلوبه القصصي بأنّه أسلوب مفكّك ينجرّ عنه غموض يحيط بالقصّة فيصعب فهمها، إلاّ على من يعرف القصّة في موضع آخر وهو يلمّح إلى التّوراة طبعًا.

(5) عبد الوهاب حمودة، القراءات واللهجات، ص 77، مطبعة السعادة، القاهرة، 1984م.

(6) ديتريش البرت، الدّراسات العربية والإسلاميةفي الجامعات الألمانية، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي، جوتنجن، 1962م.

وجـرح القرآن من حـيث طرحـه للمـواضيع مـبيّنا أنّه لا يتّـصف بالاتّسـاق والانسـجـام العلمي والمنطقي لأنّه ينتقل في خطـابه من صيـغة إلى أخـرى ومن حـال إلى حـال ضـاربًا أمـثلة: منهـا أنّ القـرآن ينـتقل من غيبة إلى خطاب ومن ظاهر إلى مضمر، ومن مضمر إلى ظاهر [7].

وقـد تـولّى أنيس المقـدسي الرّد عـلى "نولدكـه" مـبـرزا أنّـه لا يمكن مـقـابلة أسلوب القـرآن في القـصّة بأسلوب القـصّة في التّوراة لاخـتلاف الأغـراض، لأنّ كتب التّـوراة تـورد القـصّة كـحـادثة تأريخـيـة تسـرد فـيـهـا الأخـبار بتـسلسل عـادي وبأسلوب القـصاص، الغـرض منه مـعـرفـة القـصّة وأحداثها، في حين القرآن لا يهدف إلى تأريخ القصص،

وإنّمـا يذكـر مقـتطفـات يقـتـضيـهـا سيـاق السّورة، للـوعظ، والتّـوعـيـة والاعتبار، ولهـذا السّبب ترد القـصة مكـرّرة حسب ما يقتضيه المقام، وقد يعـمـد القـرآن إلى الإشـارة والتّلمـيح في أسلوب خطابي، والأسـلوب الخطابي يقتضي التّكرار كما هو معلوم [8].

وبعـد التـأمّل ندرك أنّ "نولدكه" قـدّم خـدمـة كـبيـرة للقـرآن اسـتـفـاد منهـا المسـتـشـرقـون بصـفـة خـاصّـة، إلاّ أنّه جـانب الصّواب في كـثيـر من المواطن وخـاصّة لـغة القـرآن وأسلوبه ولعلّ سـبب ذلك - إن أحـسـنا الظّن به - عـائـد إلى قلّة زاده في اللّغة العـربيّة الفـصحى، فـهـو من غيـر المالكين لناصيـة البلاغـة العربية التي يـعجز عن إدراك مـراميـها وخـفـاياها العـرب الخلص بَلْهَ المستشرق.

(7) نولدكه مادّة قـرآن Encyclopédie Britanique Edition 11، وانظر المسـتـشـرقـون والدّراسات القرآنية لمحمد حسين علي الصغير 1406، ص 30 - 31، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1986.

(8) المقـدسي أنيس ، تطوّر الأسـاليب النثـرية في الأدب العـربي، ، دار العلم للملايين، بيـروت، 1965م ص 61.

وربّما يعود هذا التطرّف إلى غلبة الهوى على النّفس وإلى شيء من الدّس يلام عليه عالم جليل مثل "نولدكه" لأنّه يعاب على العالم أن يكون هامشيّا في التعليق وسطحيا في الاستنتاج وتابعًا للأهواء والنّزعات.

4 - ريجيس بلاشير وتاريخ القرآن :

ويعدّ ريجيس بلاشير (Regis Blachère) من المغرمين بنولدكه، ومن أكثر الباحثين المستشرقين موضوعية.

بالنّسبة لجمع القرآن حفظا يطلق بلاشير الحكم فيذهب إلى أنّ الحديث النّبوي لا يعرف للقرآن إلاّ سبعة حفاظ [9] استنادا إلى روايات البخاري في جماع القرآن [10] ثمّ يذكر "بلاشير" اسمًا لقارئ لم يرد في روايات البخاري وهو سعيد بن عبيد لقّب بالقارئ [11] وقد تجاهل "بلاشير" الرّوايات الإسلاميّة الّتي لم تخضع روايات البخاري للحصر فهذا الماوردي يقول : "وكيف يمكن الإحاطة بأنّه لم يكمله سوى أربعة، والصّحابة متفرّقون في البلاد، وإن لم يكمله سوى أربعة فقد حفظ جميع أجزائه ميئوون لا يحصون... وقد سمىّ الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام القرّاء من الصحابة في أوّل كتاب القراءات له. فسمىّ عددا كبيرا [12]، ولا يمكن أن يكون عدد القرّاء قليلاً وقد قتل منهم يوم بئر

(9) BLACHERE. R, Introduction au Coran, P.28 note 26.

(10) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، الباب 17، وحفاظ الحديث هم عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حنيفة، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن وأبو الدّرداء، .Introduction au Coran, P28 , Note 26، وأضاف أن من بين أعضاء هذه اللجنة لا يحفظ كل القرآن كزيد بن ثابت لم تكن معه نهاية سورة التوبة (نفس المرجع والصفحة) ثم يذكر بلاشير اسما لقارئ لم يرد في روايات البخاري وهو سعيد بن عبيد لقب بالقارئ.

(11) الإصابة في معرفة الصحابة، 28/2، رقم 3/76.

(12) الزركشي بدر الدّين ، البرهان في علوم القرآن، 242/1

معونة سبعون وقتل في عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مثل هذا العدد [13] ويذكر السّيوطي عددًا من القرّاء من المهاجرين والأنصار يتجاوز عددهم العشرين [14] وهؤلاء ممّن حفظوا القرآن في الصّدور وتمكّنوا من عرضه على الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم، وغيرهم ممّن حفظه لا يحصى عددهم في ذلك الزّمن، حسب ما جاء في مقدّمة "طبقات القرّاء" للحافظ الذهبي" [15] وهكذا درس "بلاشير" حفظ القرآن في الصّدر ولكن عدم إلمامه بكلّ النّصوص الإسلاميّة والأخبار في هذا الموضوع أدخل عليه اضطرابًا في التّفكير وخطأ في الاستنتاج.

كما درس "بلاشير" تاريخ جمع القرآن كتابة وأوصل كتاب الوحي إلى أربعين كاتبا مستفيدا من نصوص ابن سعد في الطّبقات والنّووي في السّيرة الحلبيّة والطّبري في جامع البيان [16] ومن مقارنة مع "شفالي" و"كازانوفا".

ويشكّ "بلاشير" في كتابه "القرآن في بداية نزوله بقوله "لو فكّرنا جيّدا لوجدنا أنّ هذا الأمر لم يكن كذلك في بداية الوحي مثال ذلك عندما نزل جبريل على محمّد أوّل مرّة قائلا : إقْرأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ (العلق 1) حسب الرّواية خاف محمّد ولم يفهم أنّ هذه آيات تتّبعها رسالة كاملة، وإذا احتملنا أنّه كتب هذه الآيات فبعد فترة معيّنة عندما أدرك ذلك هو أوّل الكلام من رسالة طويلة" [17] ويرى أيضًا أنّ كتابة القرآن بعد الهجرة إلى المدينة لم تشمل كلّ الوحي لأنّ "الظّروف

(13) السيوطي جلال الدّين، الإتقان، ج 122/1.

(14) الإتقان ج 124/1.

(15) الذهبي الحافظ شمس الدّين ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايمز، له كتاب "طبقات القرّاء". ذكره الزركشي في البرهان، ج 1، ص 342، بعنوان "معرفة القرّاء".

(16) Blachère, Introduction au Coran p12

(17) Blachère , Introduction au Coran p14

تمنع ذلك كالوحي الّذي ينزل فجأة أو في الصّلاة أو في اللّيل" [18] وإذا عدنا إلى المصادر الإسلاميّة في هذا المجال نجدها تؤرّخ لكتابة القرآن منذ نزوله، وثبت أنّ الرّسول كان محاطًا بكتبة الوحي وبصحابته الّذين حرصوا حرصًا شديدًا لكي لا يضيع حرف واحد من القرآن كما ثبت أنّه عليه الصّلاة والسّلام كلّما نزلت عليه آية أو آيات دعَا من يكتب له [19].

وتأكّد أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم كان يعرض القرآن مرّة كلّ سنة على جبريل وعرضه مرّتين سنة وفاته [20].

ولو سايرنا "بلاشير" في زعمه هذا لاعتبرنا جلّ القرآن ضائعا ولم يدوّن وهو مصرّ على رأيه حيث يقول : "حتى لو احتملنا أنّ الوحي كان يكتب في عهد الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم حسب منهجيّة معيّنة فالنّتيجة غير مضمونة لأنّ تلك الوثائق قد اندثرت، ولا يمكن الحديث عنها إلاّ بشكل نظري [21] والغريب أنّ "بلاشير" يساير رأي "كازانوفا" (Casanova) [22] وهو العالم الّذي وضع دراسة معمّقة لمراحل نزول الوحي منذ كتابته في حياة الرّسول إلى جمعه أيّام عثمان بن عفّان واعتمد في دراسته على أصحّ الأخبار الواردة في مصادر عربيّة وإسلاميّة كصحيح البخاري والإتقان.

ويلمّح "بلاشير" إلى التّحريف في موضعين اثنين الأوّل قدحه في عبد اللّه بن أبي سرح الّذي ارتدّ وقال كنتُ أكتبُ "الرّحيم و"الغفور"

(18) Blachère , Introduction au Coran p15.

(19) الزنجاني أبو عبد الله ، تاريخ القرآن ص 95.

(20) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 273/4، والطبري، جامع البيان 11/1.

(21) Blachère , introduction au Coran , p1

(22) Casanova, Mohamed et la fin du monde, p141

مكان "الحكيم" و"القوي" عند إملاء الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم (23) معتمدا على رواية ابن أبي داود في كتابة المصاحف ولكنّه لا يورد الرّواية الثّانية الّتي أعلن فيها توبته ورجوعه إلى الإسلام (24). ونضيف أنّ عبد اللّه بن أبي سرح لم يكن الكاتب الوحيد للقرآن وكان معه عدد كبير من الموثوق بهم من الكتبة مع دعم الكتابة بالحفظ. وتؤكّد الوثائق الإسلاميّة كلّها أنّ عمليّة تدوين الوحي قام بها زيد بن ثابت أيّام أبي بكر وعثمان، وزيد ثقة وعدل وضابط ويتّصف بسلامة الدّين. وقد كان معه عبد اللّه بن الزّبير وسعد بن أبي وقّاص وعبد الرّحمان بن الحارث وكلّهم ثقات وعدول (25).

ولمزيد التّشكيك في سلامة القرآن، يذهب "بلاشير" إلى أنّ بذرة الكتابة في الجزيرة العربيّة وبدائيتها من شأنها أن تؤثّر في حفظ القرآن وسلامة تواتره (26).

ويمكن أن تؤخّر بدائية الكتابة ظهور نسخة من القرآن واضحة، ولكن لا تساهم في تحريف النّص ولا نقصانه لأنّ العمدة عند المسلمين كان الحفظ ولا أحد يستطيع أن ينكر على العرب ميزة الحفظ عندهم في ذلك الزّمن. وقد وجد "بلاشير" نفسه مضطرّا إلى الرّجوع لهذا الرّأي فقال إنّ الحفظ بالقلب وبصوت مرتفع هو الوحيد الّذي يضمن لنا فهم تلك الرّموز الّتي بقيت غامضة (27).

(23) Blachère , introduction au Coran , p 132

(24) ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص 23.

(25) طبقات ابن سعد، 358/2، والبرهان للزركشي ، 236/1.

(26) Blachère, introduction au Coran, p15

(27) Blachère, introduction au Coran, p16

ويذهب بعيدًا في القول بضياع نصوص من القرآن فيزعم أنّ الرّسول نسي آيات من الوحي يورد رواية مشكوكًا في صحّتها تزعم أنّ النبيّ مرّ بمصلى فسمع الصحابة يتلون آيات من القرآن فأدرك أنّه نسيها فتذكّرها بهذا السّماع [28] ويعترف "بلاشير" بعدم صحّة تلك الرّواية ولكنّه يتّخذها حجّة على زعمه.

ويثير "بلاشير" مسألة اختلاف القراءات كحجّة على عدم حفظ الوحي، وفي حقيقة الأمر اختلاف القراءات لا يعدّ إشكالا يطعن في سلامة الوحي وحفظه لأنّه مبدأ أقرّه الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم في نزول القرآن على سبعة أحرف [29].

ونجد "لبلاشير" آراء غريبة لا يمكن أن تصدر إلاّ عن هوى ومجانبة للموضوعيّة منها ما يعلّل به عدم وجود مصحف كامل في حياة الرّسول بقوله :"إنّ ميل الرّسول وأصحابه إلى ترك الأمور على ما هي عليه يؤيّده ما اشتهر به العرب من أنّهم لا يفكّرون إلاّ في الحاضر، ولا يهمّهم المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده عليه السّلام، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليه كما يؤيّد ذلك عدم تعيين خليفة" [30].

إنّه تعميم لا يقوم على منهج علمي صحيح ولا على خبر ثابت ولا أحد يستطيع أن يتّهم أمّة كاملة بهذه التّهم الباطلة [31].

(28) Blachère, introduction au Coran, p17

(29) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، الباب 5 - 100/6.

(30) Blachère, introduction au Coran, P26

(31) التهامي نقرة، مناهج المستشرقين في الدّراسات العربية والإسلامية، ج 1، ص 42 ،(د.ت).

وبالنّسبة إلى جمع القرآن زمن أبي بكر يثير "بلاشير" عدّة إشكالات :

- أنّ كلّ الصّحابة لم يحفظوا القرآن، ومن حفظه منهم اختلفت الآراء حوله كزيد بن ثابت، واختلفت الرّوايات في أسمائهم وذكر ثلاث روايات بن مسعود وسالم ومعاذ وأبيّ ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو زيد وأبو الدّرداء ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو زيد (32).

- أنّ القرآن لم يكتب كلّه في رأيه.

- اختلاف النّاس في القراءات.

- تفرّق القرآن بين الصّحف واللّخاف والأكتاف والأقتاب والعسب...

- موت عدد كبير من حفاظ القرآن في واقعة اليمامة (33)

ويشكّك "بلاشير" في الرّواية الّتي ذكرها البخاري حول سبب جمعه للقرآن (34) نظرًا لتقارب الرّوايات الإسلاميّة فمنها ما يقول أنّ الجمع لم يتمّ إلاّ في عهد عمر حسب رواية ابن سعد في الطّبقات (35) وتقول رواية أخرى أنّ عمر توفّي ولم يكمل جمع القرآن، وذهب السيوطي إلى أنّ سالم مولى أبي حذيفة هو أوّل من جمع القرآن وليس أبا بكر (36) ويذكر السّيوطي رواية أخرى تفيد أنّ زيد نقل القرآن ونسخ ما كتب في الوثائق القديمة أيّام أبي بكر، وحرّره في صحف نظيفة في خلافة عمر.

(32) Blachère, introduction au Coran, p28

(33) Blachère, introduction au Coran, p30

(34) الجامع الصحيح، فضائل القرآن، الباب الثالث 99/6.

(35) الطبقات 202/3.

(36) الإتقان 1 ص 58.

وعلّل خبر في دائرة المعارف الإسلاميّة اختلاف هذه الأخبار بحرص كلّ خليفة أن يسند هذا العمل العظيم لنفسه [37]. ويكذب هذا الزّعم أنّ أبا بكر مانع من جمع القرآن بدءا لولا إلحاح عمر ابن الخطاب.

ويضيف "بلاشير" شكوكًا حول رواية البخاري في جمع القرآن مفادها استغرابه لاختيار زيد بن ثابت رغم صغر سنّه، مع وجود كتّاب آخرين أكبر منه سنّا وأحفظ منه للقرآن. ويتساءل لماذا لم يكوّن لجنة من الكتاب، وتساءل عن صحّة الخبر الّذي أعلن موت عدد كبير من الحفاظ في معركة اليمامة وشكّك في المدّة التي أنجز فيها زيد مهمّته لأنّ أبا بكر لم يبق في الحكم أكثر من خمسة عشر شهرا واستنتج أنّ الجمع لم يكتمل إلاّ في خلافة عمر [38].

ويزعم "بلاشير" أنّ جمع القرآن في عهد أبي بكر أو عمر لا يعدّ حلاّ لحفظ القرآن من الضّياع ويفسّر عملها تفسيرا ذاتيّا فيقول: "إنّ الصّحف الّتي احتوى عليها هذا المصحف خاصّة بأبي بكر وعمر فقط، وكأنّ عمر وأبا بكر قد شعرا بمساوئ عدم امتلاك نصّ كامل للوحي فاختارا لذلك أحد النساخ الأكثر صحبة للرسول وأقدمهم تكليفا بكتابة الوحي من قبل محمّد [39].

وكذلك الأمر بالنّسبة إلى جمع القرآن في عهد عثمان بن عفّان فيزعم "بلاشير" أنّ الغرض الأساسي لعثمان من جمع القرآن النّزعة الأرستقراطيّة المكّية الّتي يمثّلها عثمان في ذلك الزّمن "فنيّة عثمان

(37) ج.بيرسن، دائرة المعارف الإسلامية، 406/5.

(38) Blachère, introduction au Coran, p32-34

(39) Blachère, introduction au Coran, p 34

واضحة وهي تتمثّل في إعطاء شرف تكوين مصحف مقدّس للأمّة إلى حزب المكيين" [40].

وهذا وهم منه لا يمكن أن نوافقه عليه.

ويطعن "بلاشير" في لجنة الكتاب فيزعم أنّ عثمان سمح لسعيد بن العاص أن يشارك في اللّجنة مشاركة فخريّة بصفته واليا على الكوفة سنة (30 م) [41] ويستغرب من مشاركة أبي بن كعب أيضا في حين أنّه مات قبل تكوين اللّجنة بسنتين، وهذا خطأ تاريخي من "بلاشير" لأنّ لجنة الكتابة تكوّنت سنة (25 م) وليس سنة (30 م) على حدّ عبارة ابن حجر [42]. فأبيّ شارك في جمع القرآن وسعيد بن العاص لم يولّ بعد على الكوفة.

ويردّ عليه صبحي الصّالح بأنّ ما ذهب إليه "بلاشير" من وحي خياله، وظنّه الكاذب، لأنّه لا مستند له تاريخي يؤيّد رأيه، كما أنّه تجاهل رواية البخاري في سبب جمع عثمان للقرآن ويذكر أنّ سبب جمع القرآن أيّام عثمان يعود إلى أسباب منها :

- اختلاف المسلمين في قراءة القرآن.

- أنّ اللّجنة الّتي كلّفت بهذا العمل كانت رباعيّة ثلاثة من قريش وزيد بن ثابت مدني من الأنصار. ويصف "بلاشير" القريشيّين الثّلاثة بالأرستقراطيّة، وهنا نلاحظ أنّ الكلمة مسقطة على مجتمع لم يعرف الأرستقراطيّة الغربيّة، ثم يذكر المصاهرة بين هؤلاء القريشيّين وعثمان بن عفّان، ولم يكن واحد منهم يتصوّر أن يجمع القرآن في غير مدينة مكّة

(40) Blachère, introduction au Coran, p57

(41) Blachère, introduction au Coran, p56

(42) السيوطي، الإتقان 59/1.

موطنهم العزيز ويوضّح "بلاشير" أنّ وجود زيد المدني وجودًا صوريًا، ولذلك تملّق الجماعة، فما اختلفوا فيه يكتب باللّسان القريشي (43)، وهذا الكلام لا يستقيم علميًا لأنّه يستند إلى التّخمين والظّن و"بلاشير" نفسه يعترف بورع هذه اللّجنة فيقول : "لا يسع أحد الشكّ في عمق شعور أعضاء اللّجنة بمسؤوليّتهم، ولئن فاتهم منهج البحث الّذي لم يكن ميسورًا لأحد في زمنهم ، ولكنّهم متّصفين بالورع" (44).

وفي قضيّة حرق المصاحف الّتي أمر بها عثمان بن عفّان بعد جمع القرآن في مصحف إمام يتشبّث "بلاشير" برواية وردت في كتاب المصاحف لابن أبي داود ملخّصها أنّ عبد الله ابن مسعود امتنع عن إحراق مصحفه وعارض في اختيار يزيد بن ثابت الّذي كان في صلب أبيه لما أسلم ابن مسعود (45). وحين حفظ ابن مسعود بضعا وسبعين سورة من في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان زيد يلعب مع الصبيّة (46).

وتنفي الدّراسات الإسلاميّة هذه الأقوال عن ابن مسعود تجاه زيد بن ثابت، وإن صدرت فعلا، فهي نتيجة غضبه لمّا نحيّ عن لجنة جمع القرآن.

وفي رواية ثانية يذكر ابن أبي داود أنّ ابن مسعود تراجع عن موقفه وعمل برأي عثمان وأحرق مصحفه (47). فلماذا تمسّك "بلاشير" بالخبر الأوّل وتجاهل الخبر الثّاني (48) ؟

(43) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 65 - 79 و Blachère , introduction au coran, p 61

(44) Blachère, Introduction au coran, p37

(45) ابن ابي داود السجستاني، كتاب المصاحف، ص 17.

(46) نفس المرجع، ص 15.

(47) نفس المرجع، ص 12.

(48) Blachère, introduction au Coran, p 37

وفيما يخص المصاحف العثمانيّة، فإنّ الدّراسات لم تتواصل إلى أين صارت تلك المصاحف وما هو موجود في دار الكتب بالقاهرة لا يمكن أن يكون المصاحف العثمانيّة لأنّها تحمل زركشة ونقوشا تفصل بين السّور أو تبيّن الأعشار القرآنيّة في حين كانت المصاحف العثمانيّة مجرّدة من النّقط والشّكل، إلاّ أنّ المستشرقين جمعوا كثير من الأخبار التّاريخيّة الّتي تؤكّد رؤية بعض العلماء القدامى لتلك المصاحف أو لسور منها في بلدان إسلاميّة ومنهم المستشرق «Quatrèmère» حسبما ذكره "برجستراسير" Bergestrasser و"برتسل" في دراستهما للنصّ القرآني (49).

واعتمد "كازانوفا" على دراسة "كواترمير" معيدا النّظر فيها، وقد أخبر أنّ أحد المصاحف العثمانيّة كان معروفا في مستهلّ القرن الرّابع للهجرة في الأوساط العلميّة (50) وقد رأى ابن بطوطة صحائف من تلك المصاحف في غرناطة ومراكش والبصرة وبعض المدن الأخرى خلال رحلته (51).

وبعد هذا، يشكّك "كازانوفا" في قيمة تلك الأخبار التّاريخيّة، فيزعم أنّ جمع القرآن لم يتمّ مطلقا في عهد عثمان بن عفّان وتلك قصّة اختلقها عبد الملك بن مروان ليكتسب شرعيّة جمع القرآن، وليتّخذها تعلّة لتحسين الرّسم في المصاحف (52) ويذهب إلى أبعد من هذا في المغالطات التّاريخيّة ليزعم أنّ الحجّاج بن يوسف أوّل من جمع القرآن (53).

(49) Bergestrasser et Pretzel : Geschichte des Coran, Textes, 7 sqq

(50) Mohamed et la fin du monde, p125

(51) Mohamed et la fin du monde, p139

(52) Mohamed et la fin du monde, p141

(53) Bachelère, introduction au Coran, p 127

واعتبر هذا الكلام هراء لا سند له من التّاريخ ولا من العقل وعارضه فيه المستشرقون إخوانه مثل "بلاشير" الّذي صرّح بعقم هذا الرأي وفساده (54) فقال : "لا يمكننا أبدا أن نوافق "كازانوفا" على هذا الزّعم الجريء الّذي تعوزه النّصوص الثابتة" (55).

هذه بعض الملاحظات حول جهود المستشرقين في الدّراسات القرآنية اخترت تاريخ القرآن في الصّدر الأوّل للإسلام في عهد الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم إلى عهد عثمان ابن عفّان رضي اللّه عنه. ورأينا أنّهم قدّموا عملا جليلا لا يخلو من تحامل على القرآن ولكن تبقى لهم ميزة المنهج والجرأة على البحث في موضوعات لا تمتّ لحضارتهم بصلة، وأغلبهم له دافع علمي وإن كان للبعض الآخر دوافع استعماريّة وتبشيريّة، فإنّ الدّافع العلمي قد يشكّل أسلم الدّوافع وأنبل الأهداف (56)، ويبقى القاسم المشترك بيننا.

5 - إيجابيات الاستشراق :

لا يمكن لباحث موضوعي في مجال الاستشراق أن ينكر أعمال المستشرقين الكثيرة في ميدان علوم القرآن والدّراسات القرآنية بصفة عامة، خاصّة فيما يتعلّق بالتّدوين والتّحقيق والفهرسة والطّبع.

ففي التّدوين، نذكر ما قام به المجمع العلمي البافاري في مونيخ الّذي أشرف على تدوين كلّ آية من القرآن في لوح خاصّ تصحبها كلّ أنواع الرّسم مع ذكر تفسيرها المتنوّع وقراءاتها (57).

Blachère, introduction au Coran, p 92 (54)

Blachère, introduction au coran ,p 68 (55)

(56) الصغير محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات الإسلامية ص 20، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الثانية 1986/1406.

(57) العقيقي نجيب، المستشرقون، ص 51، دار المعارف، القاهرة 1964م.

وبذل المستشرقون جهدًا كبيرا في تدوين فهرس المخطوطات الّتي تهمّ القرآن والتّفسير وعلوم القرآن وأشهر من اختصّ في هذا الفنّ "فيراتشكوفسكيات" ولدت سنة (1884) وبذلت وقتا طويلا في البحث على نوادر مخطوطات القرآن في القرن السّادس عشر للميلاد وعن عملها الجليل هذا كتب أمين الخولي في بحثه الّذي شارك به في مؤتمر المستشرقين الدّولي الخامس والعشرين ونصّ عباراته: "قدّمت السيّدة "كراتشكوفسكي" بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السّادس عشر الميلادي، وإنّي أشك أنّ كثيرين من أيمّة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها".

وقد لخّص بروكلمان (1868 م - 1956 م) في صورة إجماليّة أسماء من ألف في القراءات مستعينا بما كتبه "برجشتراسر" في كتابة "تاريخ القرآن" وما جاء في الفهرس، وما اطّلع عليه هو شخصيّا، ثم تدرّج تأريخيّا ليعطي جدولا بأبرز المفسّرين ما بين القرن الأوّل الهجري حتّى نهاية القرن الرّابع الهجري مبتدئا بابن عبّاس (ت 69 - 70 م) وخاتما بتفسير القرآن لأبي الحسن علي بن إبراهيم الشّيباني [58].

كما قام المستشرقون بتحقيق ونشر نفائس من الكتب في مجال علوم القرآن وفي غيرها من العلوم، وكان السّبق للمدرسة الألمانيّة الّتي نشرت تراثًا إسلاميّا نحن في أمسّ الحاجة إليه إلى اليوم ومن بين تلك الأعمال يمكن أن تخصّ بالذّكر : كتاب التّفسير في القراءات السّبع لابن عمر وعثمان بن سعيد الدّاني وكتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار،

(58) المستشرقون والدّراسات القرآنية ، ص 66.

من كتاب النّفط للدّاني وكتاب مختصر الشّواذ، لابن خلويه، المكتبة الإسلاميّة مجلّد 1934/7م. وكتاب المحتسب لابن جني، وقد طبع بحروف لاتينيّة، منشورات المجمع العلمي البافاري ميونيخ 1933، وكتاب غاية النّهاية في طبقات القرّاء لابن الجزري، المكتبة الإسلاميّة، مجلّد8 (1933 - 1935) ثم القاهرة وكتاب معاني القرآن للفراء النّحوي وكتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لأبي بكرالأنباري، إسلاميكا، 6، 234، ثم طبع بالقاهرة للمكتبة الإسلاميّة. ويبدو أن "براجشترسير" و"برتسل" كانا مهتمّين كثيرا بدراسة القرآن الكريم ونشر ما يتعلّق بآثاره. فقد اشتركا في نشر الجزء الثّالث من تاريخ النصّ القرآني لنولدكه. ولقد نشر "بريتسل" بمعاونه "إيزي" فضائل القرآن وآدابه لأبي عبيد القاسم ابن سلام وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ لبريتسل بحوثًا تتعلّق بعلوم القرآن مستقاة من مخطوطات نادرة، وتحقيقات لكتب، ووصفا لمحتوياتها، وتعليقًا على مناهجها فقد كتب في مجلّة "إسلاميكا" عن كتاب "معاني القرآن" لابن منظور وكتاب "تعليل القراءات السّبع" للشّيرازي وكتاب "المشتبه في القرآن" للكسائي.

وينضافُ إلى هذا مجهودات مستشرقين من سائر الجنسيّات مثل الألماني فريتاج (1768م - 1861 م) الّذي حقّق ونشر بمجهوده الخاصّ :

- "أسرار التّأويل" وأنوار التنزيل" للبيضاوي، ليبزيج، 1845 م والمستشرق الأنجليزي "وليم ناسوليز" (1825 م - 1889 م) الّذي حقّق خلال أربع سنوات (1856 م - 1859 م) "الكشاف"، للزمخشري في 485 صفحة. والمستشرق النّمساوي "سبرنجر" (1813 م - 1893 م) الّذي حقّق ونشر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. والأنجليزي السير"وليم موير" (1819 م - 1905م) الّذي حقّق كتاب شهادة القرآن

لكتب أنبياء الرّحمان سنة (1960) والأمريكي "آرتر جفري" الّذي حقّق ونشر كتاب المصاحف للسّجستاني مؤسّسة دي خوية، ليدن، (1937).

تلك هي نماذج من أعمال المستشرقين وليست كلّها [59].

هذا ولم يهمل المستشرقون مجال فهرسة القرآن الّتي ظهرت بشكلها البدائي في أواخر القرن السّادس عشر وأوائل القرن السّابع عشر حينما وضع المستشرق الأنجليزي "وليام بدويل" (1561 م - 1632 م) فهرساً للقرآن باللّغة التّركيّة مع تعداد تفاسير القرآن وقد طبع هذا الفهرس في ليدن سنة (1615 م) [60].

أمّا فهرسة القرآن في إطارها العلمي المنظّم، فقد بدأت في أوائل القرن التّاسع عشر، وقد تأصّلت فيما وصل إلينا عند المستشرق الألماني "جوستاف فلوجل" (1802 م - 1870 م) حينما ألّف أوّل معجم مفهرس للقرآن الكريم باللّغة العربيّة عني فيه بألفاظ القرآن ومفرداته وأسماه "نجوم الفرقان في أطراف القرآن" وطبع لأوّل مرّة عام (1842 م) في ليزيج.

وقد كان هذا الكتاب أساسًا محكما اعتمد عليه محمّد فؤاد عبد الباقي في وضع "المعجم المفهرس "لألفاظ القرآن الكريم" فتعقّب عليه ما فاته، واستدرك فيه ما خفي عليه من وجه الصّواب [61].

(59) المستشرقون والدّراسات القرآنية ، ص 66.

(60) العقيقي نجيب، المستشرقون ص 465.

(61) عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المقدمة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1945.

ولقد كان عمل "فلوجل" من أعمال المستشرقين الجليلة الّتي لم نجد مثلها في فهرسة مواد القرآن وألفاظه إلى أن جاء المستشرق الألماني "مالير" (1857 م - 1945م) واعتمد على معجم "فلوجل فألف "دليل القرآن" وقد جمع فيه مفرداته وأفعاله وحروف الجر والعطف، وقد رقمت فيه السّور والآيات لهذه الغاية، وطبع للمرّة الثّانية في باريس سنة 1925 م.

وقام المستشرق الفرنسي"جول لا يوم" بوضع (تفصيل آيات القرآن الكريم) باللّغة الفرنسيّة ورتب الآيات حسب الموضوع الواحد في فصل واحد وترجمه محمّد فؤاد عبد الباقي إلى اللّغة العربيّة.

هذه نماذج من مجهودات المستشرقين وما لم أذكره كثير، تظهر لنا أنّ الاستشراق بما فيه من سلبيات يعدّ نافذة من نوافذ الحوار بين الشّرق والغرب لابدّ من دفعه إلى الأمام.

6 - من نتائج البحث :

- إنّ الاستشراق من أبرز أنواع حوار الثّقافات وأفضلها فعلينا أن ننظر إليه نظرة إيجابيّة ونتجنّب فكرة المؤامرة على الحضارة الإسلاميّة في دراسات المستشرقين فهذه أعمالهم ومن أراد أن ينقد فلينقد نقدًا علميّا دون كيل التّهم ولا التّجريح.

- إنّ المستشرقين تفوّقوا علينا في نقطتين أساسيّتين في العلم وهما المنهج ومواكبة البحث بطول نفس، وبتتابع متواصل فالسّابق يسلّم المشعل للاّحق.

- إنّ الاستشراق يؤكّد أنّ المعرفة كونيّة وليس من حقّ أيّ كان أن يتساءل لماذا يهتمّ المستشرق بالدّراسات الإسلاميّة أو لماذا يهتمّ المستغرب بهذه الدّراسات.

- إنّ دراسة تاريخ المصحف وشدّة العناية بالقرآن من طرف المستشرقين دليل صحّة، فلولا قيمة هذا الصحف وعلومه لما اهتم به المستشرقون.

- وما أختم به أنّ المعرفة كونيّة وعلينا أن نستفيد من الاستشراق خاصّة في المنهج العلمي والصبر على البحث.

والأمل في المستقبل ليصبح الاستشراق آليّة فعّالة في دفع الحوار بين الشرق والغرب، ويحدّ من الصّدام ومن التنافر الّذي تصاعدت وتيرته بعد أحداث 11 سبتمبر وبعد احتلال العراق وتزايد معاناة الشّعب الفلسطيني، ولا يتحقّق لنا إلاّ بمعرفة بعضنا البعض "من عرف شيئا أحبّه ومن جهل شيئا عاداه".

- الكفّ عن تبادل التّهم ولا يمكن أن نطلب من المستشرقين أن يتبنّوا نظرتنا لديننا وتراثنا ولكن يحسُن اعتبار أعمالهم إثراءً واهتماما بحضارتنا ونصوصها التّأسيسيّة من هنا يجب علينا أن نقدّم عملا علميّا يساهم في إعادة دراسة تراثنا.